بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

هذا بحث قصدت فيه إلى بيان سعة الشريعة الإسلامية ومرونتها وقابليتها لمواجهة التطور البشرى، والتغير الزمانى والمكانى، مما يجعلها صالحة- بغير شك- للتطبيق فى كل زمان ومكان.

ولقد خيل لبعض الناس من المستشرقين وأمثالهم- ممن يكتبون عن الإسلام بروح التعصب، وعقلية المتحامل- أن الشريعة الإسلامية شريعة جامدة صارمة، لايتسع صدرها لمسايرة التطور، ومواجهة مايجد من أحداث الزمان بروح العصر.. الخ، وذلك أن أساسها الوحى، ومصدرها الأول النصوص الدينية، التى لايملك المسلم إزاءها إلا السمع والطاعة، وليس مقتضى إيمانه وإسلامه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١]. ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وهذه المقدمة التى ذكروها- من حيث إنها شريعة ربانية دينية- صحيحة فى نفسها، ولكن النتيجة التى بنيت عليها غير صحيحة،

إنما دفع إليها: الوهم أو الجهد أو التحامل، ويستحيل أن يوحى الإله العليم الحكيم، البر الرحيم، لخاتم رسله، بشريعة عامة خالدة، تحرجهم فى دينهم، أو تضيق عليهم فى دنياهم، أو تعجز عن مواجهة الجديد من أحوالهم وأوضاعهم، وقد وصفها منزلها بالكمال، وأراد بها الرحمة واليسر، ونفى عنها الحرج والعسر.

ولقد كانت هذه الشريعة أساس التشريع والقضاء والفتوى فى العالم الإسلامى كله قريبا من ثلاثة عشر قرنا، دخلت فيها مختلف البيئات، وحكمت فيها شتى الأجناس، والتقت فيها بعدد من الحضارات، فما ضاق ذرعها بجديد، ولاقعدت عن الوفاء بمطلب، بل كان عندها لكل مشكلة علاج، ولكل حادثة حديث.

ولم تكن النصوص الدينية- التى هى أساس هذه الشريعة- قيدا على حركة الأمة الإسلامية والحضارة الإسلامية، بل منارات تهتدى بها، ومصابيح تسير على ضوئها، وحوافز تدفع بها فى طريق الخير والصلاح، وحواجز تحول بينها وبين الشر والفساد.

أما كيف اتسعت هذه الشريعة لأحداث العصر المختلفة، والبيئات المتنوعة، وكيف تستطيع أن توجه التطور، وتعالج كل جديد بما يفى بمصالح الخلق، ويحقق مقاصد الشرع، ولايغفل روح العصر؟.

فهذا ما يتكفل هذا البحث ببيانه وتوضيحه، مؤيدا بالأدلة راجعا إلى أوثق المصادر ﴿وَمَآ تَوْفِيقِى إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.